

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَمْمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيًّا وَمَعَهُ الرَّهِيْطَ" ٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتحدثنا في الليلة الماضية عن صدر حديث ابن عباسٍ -رضي الله تعالى عنهما- الذي يرفعه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في عرض الأمم عليه.

ثم قال: ((إذ رُفِعَ لِي سواد عظيم)) والمقصود بالسواد هنا الأشخاص، أي: رأى أنساً كثيراً، بعدها عُرِضَتْ عليه الأمم فرأى النبيَّ ومعه الرَّهِيْطَ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد، فرُفِعَ له -صلى الله عليه وسلم- سواد عظيم، أي: أنساً كثيراً، والسواد يطلق على الإنسان، تقول: رأيت سواداً، يعني: سواد إنسان، ويطلق على معنى آخر وهو الجماعة، تقول: هذا الذي عليه السواد، يعني: جماعة الناس، ويطلق على الناس الكثرين أيضاً، يقال مثلاً: السواد الأعظم من الناس يحبون كذا، أو يفعلون كذا، أو هذا الذي عليه السواد الأعظم من الناس.

قال: ((فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أَمْتَى، فَقَبَلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُه))، وهذا يدل على أنَّ أمة موسى -صلى الله عليه وسلم- أو أمة بني إسرائيل من أكثر الأمم، وأنَّ موسى -صلى الله عليه وسلم- كان من أكثر الناس تابعاً، فأتباعه كثير، مقارنة بالأنبياء الذين كانوا قبله، فكان معه خلق كثير، وهو الذي خرج بالإسرائيليين من مصر، ونجاهم الله بسببه من فرعون في القصة الشهيرة المعروفة.

فكان أولئك هم موسى وقومه، وهذا من جملة الأشياء التي لربما تفسر كثرة ذكر خبر بني إسرائيل في القرآن.

وقد ذكرت في بعض المناسبات السابقة أنَّ ثمة وجوهاً بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل، فهم أمة كثيرة ممتدة، أرسل إليهم موسى -صلى الله عليه وسلم-، ولقي منهم صنوف الأذى في جميع الأبواب تقريباً، والنبيَّ -صلى الله عليه وسلم- أرسل إلى الأحمر والأسود، وبعثته إلى قيام الساعة، والمناسب -والله تعالى أعلم- أن يذكر له من خبر بني إسرائيل ما لا يذكر من غيره من أخبار الأمم؛ لأنَّ موسى لاقى من بني إسرائيل ألوان الأذى وأنواع التقلبات، فمثل ذلك يقع في مثل هذه الأمة، كذلك النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-

قال: ((لتَبْتَعُنَ سُنْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم))^(١)، يعني بهم اليهود والنصارى.

يقول: ((ولَكُنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقَ))، والمقصود بالأفق الناحية والجهة، ((فَنَظَرَتْ فَإِذَا سواد عظيم، فَقَبَلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقَ الْآخَرَ، فَإِذَا سواد عظيم، فَقَبَلَ لِي: هَذَا أَمْتَكَ))، معنى ذلك أنَّهم قد ملؤوا الناحيتين من كثرتهم، فهم أكثر من قوم موسى.

^(١) - أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب قول النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-: (لتَبْتَعُنَ سُنْنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم)

. رقم: ٦٨٨٩/٦).

قال: ((ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)), وهذا يحمل معنيين:
الأول: أن معهم هذا العدد وهم السبعون ألفاً، يعني إضافة إلى ما رأه النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا السواد في الناحيتين، زيادة عليهم هذا العدد، وهم سبعون ألفاً.

الثاني: يتحمل أن يكون المراد "ومعهم" أي: ومنهم، وفي جملتهم، وهذا هو الأقرب كما تفسره بعض الروايات، جاء ذلك مصححاً به في بعض الروايات.

((يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)), ولعل المقصود -والله أعلم- بقوله: بغير حساب يعني مناقشة الحساب، وإنما فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يدنو أحدهم من ربه حتى يضع كنهه عليه، فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملتَ كذا وكذا؟، فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، فلأنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمِ))^(٣).

وعائشة -رضي الله عنها- استشكلت قوله -تبارك وتعالى-: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨]، مع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من نوقش الحساب عذب))، وبين لها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الحساب المذكور في الآية المقصود به العرض، تعرض عليه أعماله فقط يقرره الله بها^(٤). عملت في يوم كذا، وفي يوم كذا؟، فيقول نعم يا رب، فيقول: سترتها عليك في الدنيا وها أنا أغفرها لك في الآخرة، هذا من لم ينافش الحساب، وأما من نوقش فإنه سيذهب، هذا الذي دل عليه كلام النبي -صلى الله عليه وسلم.

قوله: "بغير حساب" الذي يظهر -والله أعلم- أن المقصود من غير مناقشة للحساب، لأن الله قال: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٨] هذا الناجي، فهو مجرد عرض للأعمال من غير حساب ولا عذاب، وبينهما فرق، الحساب غير العذاب، والعذاب هو نتيجة للحساب، فيحاسب لماذا عملت كذا؟، ولماذا عملت كذا؟، ما الذي حملك على كذا؟، ثم بعد ذلك يؤمر به -نسأل الله العافية- إلى النار.

قال: ((ثم نهض فدخل منزله))، ولم يبين لهم من هم الذين يستحقون هذه المرتبة العظيمة جداً، ((فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب))، يعني: أنهم جلسوا يتحدثون، ويتفاوضون ويتناورون، يا ترى من هؤلاء؟ وذلك لحرص أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- على الخير، وحرصهم على المراتب العالية عند الله -عز وجل-، فهذه الأمور تلفت أنظارهم، ولكن من كان إيمانه ضعيفاً بالآخرة، ومن كان لا يرفع لها رأساً لا يلتفت إلى مثل هذه الأمور، لا تحرك له ساكناً، من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؟

^٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب سترا المؤمن على نفسه، (٦٠٧٠)، رقم: (٢٠/٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/٢١٢٠)، رقم: (٢٧٦٨)

^٣ - أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٦)، رقم: (٨/١١١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعييمها وأهلها، باب إثبات الحساب (٢٢٠٤)، رقم: (٤/٢٨٧٦)..

قال: ((فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-) قالوا ذلك استنتاجاً أو اجتهاداً، وهذا يدل على أن الإنسان يجوز له أن يتحاور، وأن يتذاكر، وأن يتباحث مع أهل العلم في المسائل التي تهمه.

والذين صحبوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لا شك أنهم حصلوا رتبة لم يحصلها أحد، ولا يمكن لأحد أن يصل إليها -وهي الصحبة- مهما عمل، والله يقول: **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بُيَايُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا}** [الفتح: ١٨]، هؤلاء أصحاب الشجرة.

وأصحاب بدر قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنَّ اللَّهَ اطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شئْتُمْ، قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))^(٤)، اعملوا ما شئتم: يعني في المستقبل، قد غفرت لكم.

كذلك قال الله -عز وجل-: **{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيدُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [التوبه: ١١٧]، وكذلك أيضاً أثني الله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية، كما قال الله -عز وجل-: **{لِلْفَقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُ}** [البقرة: ٢٧٣]، هؤلاء هم القراء، وقال سبحانه: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةً}** [الحشر: ٩]، وثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في فضل أصحابه: ((لا تسبوا أصحابي، ولو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))^(٥)، ولو أنفق مثل أحد من الذهب ما بلغ صدقة مد الواحد منهم من البر أو الشعير أو التمر، ولا نصيفه.

قال: ((وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله)) يعني: هذه مزية، ولكن المزية لا تقتضي الأفضلية، يعني: من ولد في الإسلام، ولم يحصل منه إشراكاً أصلاً قد يكون هذا أحسن حالاً من وقع منه إشراكاً ثم تاب، مع أن الله يبدل السينات حسنات، فهذه وجهة نظر على كل حال.

قال: ((وذكروا أشياء، فخرج عليهم -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يرقون...)) لم يقل لهم: لماذا تقولون بغير علم، هذه أمور موكولة إلى الغيب.

قال: ((هم الذين لا يرقون، ولا يستردون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون))، لا أطيل عليكم، هذه الأشياء نتحدث عنها في الليلة القادمة -إن شاء الله.

^٤- أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الممتنعة (٤/١٨٥٥)، رقم: (٤٦٠٨)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أهل بدر -رضي الله عنهم- وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٤/١٩٤١)، رقم: (٢٤٩٤).

^٥- أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كنت متخدًا خليلا) (٣/١٣٤٣)، رقم: (٣٤٧٠).

والأحاديث الواردة في هذا جاء في بعضها أن هؤلاء السبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب^(٦).

هؤلاء هم الذين حقووا هذه الصفة، والمجال مفتوح، لا كما قال بعض أهل العلم: إن ذلك قد تصرّم منذ آماد بعيدة، منذ زمن الصحابة والتابعين، ولم يبق لنا شيء، فهذا غير صحيح.

فهذا مجال أخبر عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويستطيع الإنسان أن يكمل إيمانه، وأن يتوقى مثل هذه الأمور، ولا يقع فيها، ثم بعد ذلك يحصل له بإذن الله -عز وجل- هذا الفضل العظيم والمرتبة العالية، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

^٦- أخرجه الترمذى، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٦٢٦/٤)، رقم: (٢٤٣٧)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- (١٤٣٣/٢)، رقم: (٤٢٨٦)، وأحمد (٣٢٦/١٤)، رقم: (٨٧٠٧).